فروع الدراسات اللغوية

ولا بد قبل الدخول إلى المشكلات المنهجية أن نأخذ فكرة عن علم اللغة ، وما يضم من فروع أحدثها تطور الدراسات اللغوية فى العصر الحديث ، وقد سبقت إشارة إلى هذه الفروع ، ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد إيضاح .

فعلم اللغة يتناول ابتداء ـ البحوث المتعلقة بنشأة اللغة الإنسانية . ومادار حولها من فروض ، وتخمينات ، وأقاصيص ، وذلك الفرع من الدراسة يسمى: (أصل اللغة : Origine du Lagnage) ، وكذلك البحوث المتعلقة بحياة اللغة، ونموها ، وتطورها ، وانقسامها إلى لهجات ، وهجراتها ، وشيخوختها ، وانقراضها أو موتها ، وذلكم هو مبحث (حياة اللغة Vie du Langage) وقد يتفرع عن هـــذا الجانب (علم اللهجات La Dialectologie) . كما يتصل به علم الاشتقاق التاريخى Etymologie ، وهو يبحث عن أصول الكلمات فى مختلف لغات الفصيلة الواحدة ، فى إطار الدراسات المقارنة ، وكل ذلك من علم اللغة التاريخى .

أما اللغة فى ذاتها فهى عبارة عن أصوات ذات دلالة ـ على ما سبق ، فالأصوات يتولاها بالدراسة علم خاص هو : علم الأصوات ، وهو يشمل مستويين من الدراسة :

المستوى الأول : (علم الأصوات العام La Phonétique) .

والمستوى الثانى : علم الأصوات فى سياقها ، أو علم الأصوات التشكيلى La phonologie) .

أما دلالات هذه الأصوات فيتولاها بالدراسة علم خاص بها هو (علم الدلالة La Sémantique) ، ولقد يتفرع عن هذا العلم عدة جوانب من علم اللغة ، كالبحث فى المفردات ومعانيها ، وهو (علم المفردات أو المعاجم - La Lexicologie) أو البحث فى القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات وتصريفها ، وتغير أبنيتها تبعاً لتغيير معناها ، وهو (علم بناء الكلمة أو علم الصرف La Morphologie).

والمراد بالمورفولوجيا هنا هو علم الصرف بالمعنى العام ، لا مجرد التصريف ، أو البحث فى أقسام الكلمات ، وعلاقات كل قسم بغيره من الأقسام ، والقواعد التى تخضع لها أجزاء الجملة ، وأثر كل جزء منها فى غيره ، وطرق ربط أجزاء الجملة ، وربط الجمل بعضها ببعض ، وهو . (علم التراكيب : La Syntaxe) ويتصل بهذا العلم ما يعرف فى العربية (بعلم النحو La grammaire) .

ويتفرع أيضا عن علم الدلالة البحث فى فنون الأساليب (شعرية ونثرية وخطابية وروائية) ، وهو (علم الأسلوب La Stylistique) ، وكل ذلك من علم اللغة الوصفى .

وقد أضاف البحث الحديث عدة فروع أخرى لعلم اللغة ، كالبحث الخاص بعلاقة الظواهر اللغوية بالظواهر الاجتماعية ، وهو موضوع (علم الاجتماع اللغوى : La Sociologie linguistique) ، وكالبحث الخاص بعلاقة

الظواهر اللغوية بأحوال النفس ، وهو موضوع (علم النفس اللغوى La psychologie linguistique) .

وهناك البحث فى علاقة الظاهرة اللغوية بالمكان ، وهو علم اللغة الجغرافى : La Linguis. géographique ، وهو يمثل الآن قسما رئيسيا من علم اللغة .

وكل هذه البحوث قد تنضوى تحت اسم La phylologie ، توسعا ، ولكن الاسم الذى يدل عليها مباشرة هو La linguistique، أو علم اللغة .

obeikandl.com

دراسة فى علمى الأصوات

أولا : موضوع الأصوات العام :

هذا الإيجاز السريع لفروع الدراسات اللغوية يفيدنا فى الإلمام بحدودها المترامية ، إلماما متواضعا . ولكن كل فرع منها يحتاج إلى شىء من الوضوح يساعد على تصور مجاله .

وأهم ما تبدأ به الدراسات اللغوية الحديثة بعد الإلمام بمجالها ، أن تدرس المستوى الصوتى للغة ، فهذا المستوى الصوتى هو الأساس الذى يقوم عليه بناء مفرداتها وصيغها وتراكيبها ، بل وأدبها كله ، شعرا ونثرا . لذلك كان لابد لدارس اللغة من دراسة أصواتها .

وقد وجدنا أن (علم الأصوات) يتناول مستويين فى محاولاته :

المستوى الأول هو علم الأصوات المجردة أو الفوناتيك .

وهذا الجانب من الدراسة الصوتية يبدأ بدراسة التكوين التشريحى للجهاز النطقى ، ابتداء من الحجاب الحاجز : أسفل الرئتين ، إلى الشفتين ، فهو يدرس هذه الأجزاء دراسة تشريحية ، ثم بعد ذلك يدرس وظيفتها المباشرة فى إنتاج الأصوات ، سواء بدفع الهواء ، أو بحبسه ، أو بالسماح له بأن يمر محتكا فى موضع الصوت ، كما يدرس وظيفتها غير المباشرة ، من حيث كانت بعض التجاويف فى الرأس وفى الصدر بمثابة (غرف رنين) ، أشبه بقصعة العود أو الكمان ، تجمع الصدى ، وتشكل الصوت . وأى تغير

أو عطب فى غرف الرنين الإنسانية ، كالزكام ، أو الرشح ، أو اللحمية مثلا ، يؤثر تأثيراً مباشراً على طابع الصوت .

ويتناول هذا الجانب أيضا دراسة الصوت ومكوناته أو عناصره الأساسية ، من حيث عدد الذبذبات وطبيعتها . وتكونها فى هيئة موجات هوائية ، وهو بذلك يستخدم (علم الطبيعة الصوتية Acconstique) ، كما يستخدم عدة أجهزة للتسجيل وللقياس الالكترونى ، وفى مقدمتها جهاز Sona graph

ويدرس هذا الجانب أيضا صفات الصوت المثالية ، من جهر وهمس ، وانفجارية واحتكاكية ، وانطلاقية ، وانتقالية ، وذلك على مستوى استعمال الإنسان للغة ، أية كانت اللغة .

ثانياً : موضوع الأصوات التشكيلى :

أما الجانب الثانى فإنه يدرس الصوت فى سياقه ، ولذلك يطلق عليه (علم الأصوات التشكيلى) ، أو الفونولوجيا ، الذى يدرس النظم الصوتية للغة معينة ، وكما ينطقها أصحابها فى ممارستهم اليومية .

ولا شك أن الصوت فى سياقه يختلف عن الصوت المجرد ، من حيث كمية الجهد اللازمة لإنتاجه ، ومن حيث تأثره بالأصوات السابقة عليه ، واللاحقة به ، ولهذا التأثر قوانين عامة ، فى جميع اللغات ، بحيث نجد أن صوتا كالنون مثلا فى العربية قد ينطق على سبع صور ، بحسب الصوت التالى له ، وكل هذه الصور أعضاء لفونيم واحد هو (النون) وكلمة (فونيم) معناها (الوحدة الصوتية) ، التى تأخذ عدة صور باختلاف المواقع المؤثرة فيها . ولسوف نقدم فيما بعد دراسة مفصلة لفكرة (الفونيم) ، والمدارس التى حاولت تفسيرها على أسس مختلفة .

(المقطع العربى) :

كذلك يدرس هـذا العلم البناء المقطعى للغة ، وهو بناء يختلف من لغة إلى لغة أخرى ، ومن الأمثلة على ذلك أن المقطع ، وهو تقسيم طبيعى ، فوق البسيط ، للحدث اللغوى ، لا يمكن أن يتـكون فى اللغة العربية من أصوات صوامت فحسب ، كما لا يمكن أن تبدأ الـكلمة العربية بصامتين ، ولا بحركة ، ولإيضاح ذلك تستعرض أشكال المقطع العربى الأساسية ، والثانوية . وقد عرفت العربية ثلاثة أشكال أساسية هى على التوالى :

١ — مقطع قصير ، ويتكون من صامت + حركة قصيرة ، مثل الـكاف وحركتها فى كتب - Ka .

٢ — مقطع طويل مفتوح ، ويتكون من صامت + حركة طويلة ، مثل : الـكاف والألف فى كاتب Kaa .

٣ — مقطع طويل مقفل ، ويتـكون من صامت + حركة قصيرة + صامت مثل : الأداة كَمْ Kam .

هذه المقاطع الثلاثة هى التى يتـكون منها الـكلام العربى المتصل ، ولا بد لـكل كلام عربى أن ينتهى فى التحليل الأولى للصيغ إلى هذه المقاطع ، كلها أو بعضها .

وهناك صورتان مقطعيتان تردان فى النطق ، فى حالة الوقف غالباً ، وهما :

٤ — مقطع مديد مقفل بصامت ، ويتـكون من :

صامت + حركة طويلة + صامت ، مثل النطق بالفعل (كان Kaan)

٥ — مقطع مديد مقفل بصامتين ، ويتكون من :

صامت + حركة قصيرة + صامتين ، مثل النطق بكلمة (قَدْر ـ qadr) .

وهذان المقطعان يعرضان فى العربية فى حالة الوقف غالباً ، كما إذا وقفنا على كلمة : (مسلمين) وهى مكونة من ثلاثة مقاطع أرقامها هى (٣ و ١ و ٤) . وكما إذا وقفنا على كلمة (القدْر) ، وهى مكونة من مقطعين (٣ و ٥) . وإنما اشترطنا حالة الوقف ، لأن وصل الكلمة بما بعدها يختفى معه هذان الشكلان المقطعيان قطعاً ، وقد يأتى المقطع الرابع وسط الكلمة استثناء فى مثل الكلمات : (ولا الضالِّين) (والحاج محمد) الخ .

ونستطيع أن نخرج من هذا التحديد بمجموعة الخصائص البنيوية التى يجب أن تتوفر للمقطع العربى :

١ — يجب أن يبدأ بصامت .

٢ — يجب أن يثنى بحركة .

٣ — تختلف المقاطع بعد ذلك فى العنصر الثالث ، الذى لا وجود له فى المقطع الأول ، وهو حركة فى الثانى ، وصامت فى الثالث .

ومقتضى ذلك أن الكلمة العربية لاتحتمل فى أولها صامتين ، وإن كانت تحتملهما فى وسطها ، فى مثل : يكتب yaktub — حيث تتجاور الكاف والتاء ، وبحيث إن الكاف نهاية المقطع الأول ، والتاء بداية المقطع الثانى .

والعربية إذن لاتقبل تجاور ثلاثة صوامت ، بله أربعة ، فإذا اجتمعت ثلاثة وسط الكلام وجب تحريك أحدها ليرتد النسيج النطقى إلى الأصل المقبول ، وهو مايسميه النحاة « التحريك للتخلص من التقاء الساكنين » ، أو هو بتعبيرنا : التحريك للتخلص من تجاور ثلاثة صوامت .

هذا الشكل البنيوى فى النطق يفرض على الناطق مبدأ التحريك ، وبقى عليه أن يختار الحركة الصحيحة فى موقعها ، إن كانت حركة لمبنى أو لمعرب .

وكل هذه المحاذير اللازم تجنبها فى المقطع العربى مقبولة كلها فى اللغات الأوربية .

فالإنجليزية مثلا تنطق الكلمة مبدوءة بصوامت دون حركة تفصل بينها مثل (street) ، ففيها السين والتاء (st) تعقبهما الراء المتحركة بحركة (ee) ، وهذا التكوين البنيوى للكلمة لا يمكن أن يأتى فى العربية . وكذلك يأتى داخل الكلمة ثلاثة صوامت بل أربعة مثل abstraction,construction ، وقد تعوَّد اللسان الإنجليزى أن ينطق بها دون صعوبة .

كذلك لا يمكن أن تبدأ الكلمة فى العربية بحركة شأن الكلمة الإنجليزية important فإذا كان لابد من البدء بحركة فى أول الكلمة اجتلبت قبلها همزة ، ليكون البدء بمتحرك أعنى : (صامت + حركة) مثل : كتب — Kataba يكتب yaktubu فإن صوغ الفعل الأمر من المضارع يقتضى إسقاط ياء المضارعة (ya) فيبقى لصيغة الأمر بنية (كْتب Ktub) ولما كان من العسير النطق بالصامتين (الكاف والتاء) فى بداية الكلمة فإن من الطبيعى الإتيان بحركة قبل الكاف على هذه الصورة (uKtub) ، ولكن محذورا آخر سوف يحدث ، وهو وجود حركة فى بداية المقطع الأول من الكلمة ، فكانت همزة الوصل هى الصوت المساعد للنطق بالمجموعة الممنوعة فى بناء اللغة العربية ، وقد توصلت إلى هذا الحل الفطرة العربية السليمة التى نطقت الفعل (أُكتب) uktub ؟ ولذلك (سميت همزة الوصل) ، أى : التى يتوصل بها وبحركتها إلى النطق بصامتين تبدأ بهما الكلمة .

فإذا ورد الفعل أحيانا فى سياق لا يتطلب هـذه الهمزة سقطت مع حركتها ، وذلك مثل : قَالَ كُتُبْ (qaala ktud) وإن لزم رسم ألف الوصل إملائيا .

ولسنا نريد أن نسرف فى التعليق أكثر من هذا ، ولـكن القارىء يستطيع أن يتصور ما لم يرد فى هذا الحديث قياسا على ما أشرنا إليه .

النبر والتنغيم :

ومن البحوث التى يتناولها علم الأصوات التشكيلى (الفونولوجى) ظاهرة النبر أو الضغط stress أو accent وهى ظاهرة أو خاصة صوتية تميز الناطق بلغة أو لهجة معينة عن غيره من الناطقين بلغة أخرى ، أو لهجة مخالفة .

وقد نلحظ ذلك بين لغتين ، فى نطق كلمة accent فى الإنجليزية ، حيث يكون الضغط على المقطع الأول sc/ cent على حين يضغط الناطق الفرنسى على المقطع الثانى فى نفس الـكلمة . كما نلحظ هذا الضغط لدى الناطق لـكلمة (مدرسة) إذا كان من القاهرة ، فنجده واقعا على قطع الراء (ra) من mad tra sat على حين يضغط الناطق من بنى سويف مثلا على المقطع الأول من نفس الـكلمة .

وقد أكدت البحوث الحديثة أهمية هذه الظاهرة فى دراسة ظواهر اللغة العربية القديمة ، كما أنها من أهم مايعنى به الدارسون للهجات المعاصرة .

كذلك يتناول علم الأصوات التشكيلى ظواهر التنغيم ، وطول الصوت وقصره فى بعض السياقات ، سواء أكان طوله سمة أساسية له أم صفة عارضة ، إلى غير ذلك من الموضوعات التى تزخر بها المؤلفات المتخصصة .

صوغ الكلمات بين العربية وغيرها :

وينتقل علم اللغة بعد ذلك إلى دراسة بناء الكلمة ، والقوانين التى تتحكم فى هذا البناء ، من لغة إلى أخرى ، فيدرس أنواع الاشتقاق ، وطرق الصياغة ، ووضع السوابق واللواحق فى كل حالة من هذه الحالات ، والتغيرات الصرفية الناشئة عن تجاور الأصوات ، وقضايا الإعلال والإبدال .

فإذا انتهى من هذا المستوى البنيوى انتقل إلى دراسة المعنى الذى يتضمنه . فيما أطلق عليه (علم الدلالة) أو (علم السيمانتيك) ، وهو موضوع تخصصت له دراسات عميقة وجادة ، فى اللغات الأوربية ، كما بدأ يأخذ مكانه فى الدراسات العربية المعاصرة .

على أن لنا ملاحظة عامة عن الطريقة التى يتم بها صوغ الكلمات فى العربية الفصحى ، ينبغى أن يلم بها القارىء ، وهى طريقة يتم على أساسها تحديد المعنى الأصلى للكلمة ، وما يشتق منها ، فللغة ، أية لغة ، طريقتان أساسيتان فى صوغ الكلمات :

١ — طريقة الإلصاق . ٢ — طريقة التحول الداخلى .

والطريقة الأولى متبعة فى اللغة الفرنسية ، حيث يكون للكلمة (ثابت radicale-) يدل على المعنى الأصلى ، ثم تأتى السوابق واللواحق لتعطينا الصور المختلفة للكلمة ، لتدل على المعانى المختلفة ، مثال ذلك : الثابت(sabl) تضاف إليه اللاحقة (e) فيصبح (sable) بمعنى رمل ، وتضاف إليه اللاحقة (er) فيصبح (sabler) ليفيد معنى الفعل ، وتضاف إليه اللاحقة (erie) فيصبح (sablerie) ليدل على المكان ، وهذه كلها لواحق .

وتضاف إلى فعله السابقة (en) ، فيصبح (en sabler) ، ثم تضاف إلى هذا الفعل السابقة (des) ، فيصبح (desensabler) ويأتى من هذا الفعل عن طريق تغيير اللاحقة كلمة (desensablement) وهكذا .

وبناء على هذا التغير فى السوابق واللواحق يتغير المعنى ، غير أن الثابت (sabl) لم يتغير مطلقا ، كما رأينا .

أما الطريقة الثانية فهى المتبعة فى العربية ، وذلك أن مادة الكلمة فيها تتكون من مجموعة من الصوامت ، ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة ، ثم يرد على هذه الصوامت مصوتات أو حركات متغيرة ، وهى التى تؤدى لنا الصور المختلفة ، ذات المعانى المختلفة أيضاً .

ومثال ذلك المادة (ك ت ب ـ Ktb) وهى توفر لنا الأساس الذى نبنى منه الكلمات بوساطة إقحام الحركات داخل أجزائها ، أى بين الصوامت ، فإذا وضعنا مصوت الفتحة (a) بعد الصامت الأول والثانى هكذا (كتب Katab) تكون لنا الفعل الماضى . وإذا غيرنا هذا الصوت إلى ضمة مثلا (u) هكذا (كُتُب Kutub) أفادنا هذا التكوين معنى آخر غير فعلى هو جمع (كتاب) .

وإذا جعلنا مكان الضمتين ضمة وكسرة (u — i) أفادنا هذا التكوين معنى آخر هو معنى الفعل المبنى للمفعول ، فى مقابل المبنى للفاعل هكذا (كُتِبَ — Kutib) .

وكل هذه الاختلافات جارية فى نوع المصوتات ، أو طابعها . فإذا كان الاختلاف فى كميتها حدثت صيغ كثيرة أخرى ، ومثال ذلك أن نضيف

كسرة قصيرة وفتحة طويلة (i-aa) هكذا : (كتاب - Kitaab) لتفيد الصيغة الحاصلة معنى ذلك التأليف المكون من صفحات مقروءة ، وإذا عكسنا ترتيب هذين الصوتين هكذا (aa-i) فى مثل كاتب (Kaatib) أفادتنا الصيغة معنى مختلفا هو الشخص المتصف بالكتابة ، وهكذا .

وقد يزيد فى الصيغة وجود أحد الصوامت الأصول ، كتضعيف التاء من كلمة (كُتَّاب - Kuttaab) جمعا لكلمة (كاتب) ، ومع ذلك يظل الأصل ثابتا غير منتقص .

ليس معنى هذا أن العربية جهلت طريقة الإلصاق ، فقد يأتى من هذا الأصل نفسه كلمات : (مكتوب ، ومكتوبة ، ومستكتب ، واكتتاب) ، وفيها سوابق ، ولواحق ، وحشو فى وسط المادة . وفى العربية عدد غير قليل من هذه اللواصق ، بالإضافة إلى اعتمادها على طريقه التحول فى المصوتات ، وهى الطريقة التى أفادتها وفرة فى الصيغ ، وثروة فى الكلمات ، وكثرة فى الصور المشتقة من أصل واحد ، وهو أمر لم تعرفه لغة أخرى غير العربية ، وبخاصة فى جمع التكسير .

فإذا جئنا إلى المعنى المتولد من هذه الصور وجدناه محدداً تحديداً قاموسيا فى المعاجم ، ولكن المجتمع والتطور التاريخى للغة ، كما يحدث تأثيره فى الكلمة ، يحدث تأثيره فى معناها ، فيضيف إليها ، وينقص فيها .

ومن امثله الزيادة فى المعنى كلمة : (وطن) فإن معناها الاجتماعى المشع بالنسبة إلى غريب عن بلده يزيد كثيرا عن معناها القاموسى . وكلمة (فقيه) تعنى فى الأصل أعلى قمة يبلغها العالم فى مادته ، وبخاصة فى ميدان التشريع ، ولكنها الآن قد ابتذلت خاصتها البيانية ، فأصبحت تدل على ذلك المتسكع فى المقابر ، وهكذا انحطت دلالتها ، وهى فى طريقها إلى الانقراض ، بانقراض

هذه الطبقة من المتسكعين . ولهذا العلم (علم الدلالة) تطبيقات وأصول فى العربية ، وفى العاميات المعاصرة .

* * *

على أن من الضرورى أن نقدم هنا بحثاً مفصلا عن أهم موضوعات علم الفونولوجيا ، نقدمه أولا كنموذج لبحوث هذا العلم ، يكشف عن ثرائه ، وثانياً لأن أى كتاب من الكتب التى تناولت بحوث علم اللغة لم يستوعب الحديث فيه على نحو كاف وشاف . هذا الموضوع هو (نظرية الفونيم) ، وسوف نحاول ألا ندع فكرة مهمة دون أن نذكرها ملخصة أو مفسرة ، تبعا لإدراكنا لأهمية هذا أو ذاك .